تلخيص محور " المنزع العقلي" للجاحظ :

إن النقاط الأساسية التي علينا فهمها و إدراكها من جهة أولى، و التعمق فيها وتدعيمها بشواهد في مرحلة ثانية اعتمادا على كتاب الحيوان و الرسائل للجاحظ، لا تتجاوز سبع مسائل تتمحور حول **خصائص العلم العقلي عند الجاحظ** و هي كالتالي :

أهم المسائل المتصلة " بالمنزع العقلي " عند الجاحظ هي:

- الحجاج

- العقل و الحواس

- المنهج العلمي

- الفكر الاعتزالي

- النزعة التعليميّة

- المعارف

- الموضوعية و عدمها

- تصنيف الأثر

- القضايا المطروحة (...)

نحن مطالبون بتنظيم هذه الأفكار و التوسّع فيها اعتمادا على مصادرنا الأصليّة. فلا نكتفي بالكتاب المدرسي و حسب، بل يجب العودة إلى المدوّنات لإدراك الإشكاليات و فهمها، واكتساب زاد معرفيّ و شواهد تفيدنا في المواضيع. لذلك استحضرنا في العمل الكثير من النقاط المستوحاة من الكتب المصادر.

**1 – تفصيل هذه الإشكاليات :**

**\* الحجاج عند الجاحظ :**

لا تخلو نصوص الجاحظ من اعتماد مكثف للحجاج بأساليبه و بنيته و أركانه. و نحن في هذه المرحلة سنتطرّق إلى هذه النقاط تباعا، ما الحجاج؟ و ماهي بنيته في نصوص الجاحظ؟ ماهي أنواع الحجج المستعملة؟ وماهي مصادرها؟

من الأفضل البدء بتعريف الحجاج، تعريفا علميّا بسيطا مؤديا للغرض:

**+ تعريف الحجاج:**

الحجاج أسلوب يعتمد للإقناع بفكرة ما، وهو يتطلّب مجموعة من العناصر:

- الباث : وهو صاحب الفكرة المراد الإقناع بها.

- المتقبّل : وهو الشخص الرافض أو المشكك للفكرة .

- الرسالة : وهي الفكرة المراد الإقناع بها .

- مجموعة حجج (سنفصّل الحديث فيها لاحقا )

- سيرورة حجاج : أي طريقة التمشي و أساليب الإقناع.

ولا تخرج وظائف الحجاج عنده عن الرغبة في الإقناع بموقف أو فكرة.

**+ بنية الحجاج عند الجاحظ:**

يبني الجاحظ حجاجه بناء منطقيّا يختلف من نصّ لآخر. فيستعرض الأطروحة المدعومة فالمدحوضة. ثم يحاول تفنيدها باستعمال تمشّي منطقي يتمثل في تدرج بناء الحجج من الأضعف إلى الأقوى. وبتنويع الحجج معتمدا المنهج التعليمي الواضح و الجليّ من خلال القرائن اللغوية " التحضيض، الأمر، الدعاء، الالتماس"... وفي نصوص أخرى يقدّم الجاحظ نقيض الأطروحة ليردفها بالأطروحة المدعومة فالاستنتاج.

هذا التمشي يعتبر خطّة حجاجية يعتمدها الجاحظ للدحض و تقديم البديل مستعملا مجموعة الحجج المختلفة نسردها في العنصر الموالي :

**+ أنواع الحجج و مصادرها :**

ككل كاتب لنص حجاجي، يعتمد الجاحظ حججا مختلفة و متنوعة منها :

- الحجج الواقعية / المنقولة / التاريخية / الدينية ( حجة السلطة ) / التاريخية ... وأخذت هذه الحجج من مصادر متنوعة، فمنها ما أخذ عن السابقين من لغويين و مفسرين، ومنها ما أخذ عن المعاصرين للجاحظ من علماء حيوان و غيرهم، وما أخذت من النصوص الدينية السماوية منها و البشرية كالقرآن و الإنجيل و التوراة أو زرادشت و سومر و المجوس ... وغيرهم من الحضارات و الديانات .

**\* حجج استدعاء الوقائع :**   
 مباشرة ( المعاينة - التجربة...) وهي متواترة في النصوص .  
. عن طريق الوثائق ( الشّواهد النصّية ) و هي كثيرة  
برواية من شهدها ( الشّهادات )، مثل :"حدثني صديق لي أنه حبس كلبه..." .

الانطلاق من المسلّمات و البديهيات: " أعلم أنّ الله جلّ ثناؤه خلق خلقه ، ثمّ طبعهم على حبّ اجترار المنافع و دفع المضار..." .

**\* حجّة السّلطة :**

وهي الاستشهاد برأي أو بسلوك شخصيّة تعد مرجعا أو سلطة في المجال لمنزلتها أو شهرتها... ، و معظم سند الجاحظ من هذا القبيل : " فقد كان إسحاق من معادن العلم ..."

**\* التوصيف :**   
 وهو إصدار حكم إيجابيّ للتّحسين أو التّقدير أو حكم سلبيّ للتّقبيح أو الاستهجان، و ذلك للتّأثير في المتلقي . مثل : " و هذا كلام شريف نافع..."

**\* الحجة المنطقية/شبه المنطقية :**

تبنى هذه الحجة على أساس الربط بين السبب و النتيجة عن طريق الربط بين المقدمات و النتائج و يرد هذا النوع غالبا في أسلوب شرطي. " ولو كان الشرّ صرفا هلك الخلق ".

(...)

**\* العقل و الحواس :**

- يرى الجاحظ أن وسائل إدراك المعرفة عند الإنسان هي : الحواس و العقل .

+ أما الحواس فقاصرة عن إدراك المعرفة , عاجزة عن بلوغ اليقين , كاذبة في نقل المعارف . ذلك لقوله : " و لعمرى إن العيون لتخطئ و إن الحواس لتكذب " .

+ وأما العقل فهو الحجة و الوسيلة المعتمدة لإدراك المعرفة و بلوغ اليقين . فالعقل ميزة الإنسان و هو ممارسة عملية التفكير التي تميزه عن الحيوان . يقول الجاحظ مبينا فضل العقل : " فلا تذهب الى ما تريك العين , و اذهب الى ما يريك العقل . و للأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس, و حكم باطن للعقول. و العقل هو الحجة".

هذا الموقف الذي اتخذه الجاحظ من الحواس باعتبارها دون العقل، لا منفعة منها، جدير بالتأمل و الفهم، حيث يمكننا التساؤل عن مدى مصداقية هذا القول ؟ و هل للإنسان العيش بالعقل المحض ؟ أليس للحواس دور في إدراك الحقائق ولو باليسير ؟ ألا نرى الجاحظ مشطا في حكمه مغاليا فيه ؟ ألا نلحظ في أقواله تضاربا حين يجعل المعاينة التي قوامها العين ( الحواس ) جزءا لا يتجزأ من طرق الإدراك ؟

موقف الجاحظ بدا واضحا مبررا من حيث تفضيل العقل على الحواس، لكن موقفنا نحن كناقدين ينبغي أن يشير إلى هذه النقاط و يحاول الإجابة عنها بأسلوب منطقي منهجي مبرر ومدعوم بشواهد مناسبة.

**\* المنهج العلمي / المنزع العقلي :**

من مظاهر المنهج العلمي / العقلي المعتمد :

- اعتماد الشك , الذي يعتبره الجاحظ مجالا من مجالات التعلم , فهو مرحلة يقف فيها الباحث عند مسألة بين الإثبات و الإنكار . فالشك ممهد لطريق البحث إذ يشعر الإنسان في مرحلة الشك بحيرة لا يخرج منها سوي ببلوغ اليقين، لقوله : " فلم يكن يقين حتى كان قبله شك " . وقوله حاثا القارئ على إدراك مواضع الشك : " فاعرف مواضع الشك " ويضيف قائلا في اعتبار الشك علما من العلوم الواجب تلقينها و تعليمها : " تعلم الشك في المشكوك فيه تعلما " .

- إعمال العقل في الأخبار المنقولة، وإن كانت من مختصين كالجزارين، أو القرادين، الحوائين، الصيادين ...

- اعتماد أساليب كالتعديد والتوسع فالتفرع و التفصيل ( التوليد : توليد جملة عن جملة و فكرة عن فكرة ) .

- التعويل على التجربة : وهي الاستخبار عن الحقيقة بالبحث في ظاهرة ما من عالم الطبيعة أو الحيوان أو الإنسان أو أي مجال من مجالات المعرفة لاستنباط الحكم أو القاعدة، تطبق على كل ظاهرة.

تنطلق التجربة عند الجاحظ من الملاحظة المباشرة بالعين و هذا ما يسميه " العيان " و هو من أهم مصادر المعرفة لقوله : " وليس يشفيني إلا المعاينة " .

كما يتجلى لنا المنزع العقلي أو المنهج العلمي من خلال الدحض و النقد و التجريح و ...

(...)

**\*الفكر الاعتزالي :**

المتأمل في نصوص الجاحظ يلاحظ تأثره بالفكر الاعتزالي في طرق رده على الفرق الأخرى , كما يلحظ ميله للاعتزال في تمجيده للعقل و توسله أداة قيمة في فهم المعارف و تصحيحها , خلافا لأهل السنة .

والمعتزلة فرقة نشأت في العصر الأموي , عرفت بتبجيلها العقل و تقديمه على كل وسائل المعرفة , بل وتقديمه على الشرع إذ توكل لهذه الآلة التي تعصم الإنسان من الخطأ , وتوكل إليه مهمة النظر في النص القرآني و تفسيره و استنباط أحكامه .

نظرت هذه الفرقة في مسألة الخير و الشر، و الجبر و الاختيار ... الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر .

تعتمد هذه الفرقة على علم الكلام الذي يؤمن بحرية العقل في البحث و النظر و التأويل و فهم النص دون قيد أو حاجز. بالإضافة إلى بعض السمات الأخرى التي سردها الجاحظ في حديثه عن المعتزلة اثر رده على النصارى ومنها : التوحيد و نفي الشبهات و الإيمان بكل الرسل و العدل في الحكم.

يقول الجاحظ في هذا السياق : " لولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ( الفرق ) " .

**\* المنزع التعليمي :**

يرى الجاحظ أن كل عمل أدبي كان أو غيره، لكاتبه رسالة من ورائه فأقر برسالة نبيلة هي تقريب العلم إلى القارئ، فنصّب نفسه معلما في كثير من نصوصه، ليهيمن الأسلوب التعليمي التلقيني الذي اتضح من خلال مجموعة من الأساليب منها : التنبيه / الترغيب في قوله : " فالرغبة و الرهبة أصلا كل تدبير ...، فاجعلهما مثالك الذي تحتذي عليه، و ركنك الذي تستند إليه، و اعلم أنّك إن أهملت ما وصفت لك عرضت تدبيرك للاختلاط " / الترهيب / التحذير وذلك في : " و احذر كل الحذر أن يخدعك الشيطان عن الحزم فيمثل لك التّواني في صورة التواكل " .

كما نتبين ذلك من خلال التراكيب المتواترة في نصوصه من ذلك : " أوصيك ايها القارئ المتفهم " و " اعلم أن "، " إياك أن تسيء الظن " و قوله في مواضع أخرى : " إلا أنك يجب أن تعلم أن ..." و " افهم " ، " ألا ترى " و قوله " ألا تعلم " ...

وتتواتر مثل هذه التراكيب و الأساليب في ثنايا المدونتان المدروستان مما يعسر حصره فنكتفي بذكر أمثلة و نماذج يستدل بها التلميذ و يوظفها في مواضيعه كشواهد وإن كانت كلمة واحدة مؤدية للغرض مفيدة و معبرة عن المعنى .

**\* المعارف :**

- تنوعت معارف الجاحظ و تعددت، فشملت جل ميادين الحياة تقريبا، إذ خاض في عالم الإنسان بجزئياته من أكل و شرب، كما غاص في بدنه و تطرق إلى شهواته و أعضائه و تصرفاته، دون نسيان لمعاملاته . وكذلك لم يغب عالم الحيوان بأصنافه من حيوانات برية و بحرية وطائرة، فاهتم بطرق عيشها و تكاثرها و تصرفاتها ...

من هذه المعارف : ( نحفظها لنستدل بها في المواضيع كشواهد )

**+ معارف عن الحيوان :**

- حزم فرخ العقاب : يورد هذه المعلومة عن حديث لأعرابي مدار قوله : " كان سنان بن أبي حارثة أحزم من فرخ العقاب " أي أن فرخ العقاب يحزم " يكتف " كي لا يقع من عشه الواقع أعلى الجبل .

- ظمأ الأيل إذا أكلت الحيات : مصدر المعلومة " الزَّبُورْ " و هو كتاب من الكتب المقدسة حيث قال فيه داود عبيه السلام : " شوقي إلى المسيح مثل الأيل إذا أكلت الحيات " .

إذا أكل الأيل حية قطع صلته بالماء , فضل ضمآنا كي لا يمر له سم الحية عبر الماء .

- موت الذباب : عجز الفيل عن قتل الذباب عند الخفقان بأذنه في المقابل تموت الذبابة إذا صفقت الفرس بأحد جفنيها و إذا صاح الحمار .

- فرس الماء : و أكلها للتماسيح , يقدم الجاحظ أطروحة صاحب فرس الماء الذي يؤمن بأكل الفرس للتماسيح، ثم يقدم أطروحة الرافضين الذين يقرون أن الفرس بهيمة من البهائم لا تصطاد، ليختم ذلك بموقفه و استنتاجه الذي يفيد أن فرس الماء من المشترك أي ما يأكل اللحم و الحب .

- السفاد (المني) و مفعوله في الكائنات بأصنافها، من هزال و فساد للحومها ...

- فعل الجرذ المخصي في غيره من الجرذان، وبيان الفارق بينه و بين سائر الكائنات التي تخصى . فالجرذ يخالف بقية الكائنات التي إن خصيت ضعفت، أما الجرذ إن خصي صار أقوى الكائنات في الأرض .

- فعل السنور في الفأر و إيراد مقولة زرادشت و الرد عليه : " زعم زرادشت أن الفار من خلق الله و أن السنور من خلق الشيطان ..." ثم يقول : " ونحن نجد عيانا أن الذي قلتم به خطأ ..."

وتتعدد المعارف لتمتد على سبعة أجزاء من كتاب الحيوان و عددا كبيرا من الرسائل .

**+ معارف عن الإنسان :**

- دور اللغة ووظيفتها التواصلية .

- الختان عند اليهود و المسلمين و النصارى : المعرفة التي أضافها الجاحظ تتمثل في ختان اليهود لأبنائهم في اليوم الثامن و ذلك لتجنب انتشار البرص .

- فضل الكلام على الصمت "و لم أجد للصمت فضلا على الكلام مما يحتمله القياس " واستدل في ذلك بقول إبراهيم عليه السلام حين جعل من الكلام وسيلة تنجيه من عقاب قومه اثر تدميره لأوثانهم.

وغيرها من المعارف التي جمعها كتاب الحيوان و الرسائل بخصوص الإنسان من أكل و شرب و نكاح و أعضاء و علم ...

نخلص إذا إلى أن مجال المعرفة عند الجاحظ الكون بأسره من إنسان و حيوان و جماد . و الوسيلة المعتمدة هي التأمل العقلي و التجربة العلمية لغايات منها الوقوف على عظمة الله في الكون و إثبات وجوده . فالمعرفة عنده هاجس لا يفارقه أبدا فلا ينفك يبحث عن الحقيقة مهما كانت بساطة الموضوع الذي يخوضه .

**\* الموضوعية و عدمها :**

- ما تميز به الجاحظ في مُؤلفيه (الحيوان و الرسائل )، ميله الدائم إلى اتخاذ الموضوعية منهجا في ثنايا نصوصه . فالجاحظ بدا موضوعيا من خلال أسلوبه و لغته، إذ لم نجد ثلبا و لا شتما في نصوصه و إن تهكم أو هاجم بعض خصومه , بل و نهى عن ذلك ونصح الناس بالتثبت و الروية و الإمعان قبل إصدار الحكم . كما بدت الموضوعية جلية في نقده، فالجاحظ لا يدحض أو ينفي فكرة إلا و جاء ببديل منتهجا أسلوبا عقليا بدايته الشك فالمعاينة فالتجربة ثم الاستنتاج اعتمادا على حجج و مواقف . كما نقد الجاحظ العالم و العامي، المفسر و اللغوي، الراوي و المتكلم، البلاط و الرعية، العربي و الأعجمي، والمختصين في علم الإناسة و علم الحيوان، المسلم و النصراني ... نقد مواقفهم دون إسقاط ولا تسلط بالرأي أو اتخاذ مواقف، وإن عجز عن تقديم البديل ترك الحكم للقارئ الذي وجدناه حاضرا في نصوصه .

**- المآخذ (وتستعمل عادة في النقاش )** : نقيض الموضوعية ( الانطباعية – الذاتية – الذوقية ): نجد الجاحظ أحيانا يفرض مسلمات قد لا يوافقه فيها غيره و يبني عليها نقده بناء محكما فيلزم القارئ بها و يجعلها معرفة لا تجادل . أو إيهام القارئ بوجود محاج له، في حين أنه لا وجود له بل هو وليد عقله. كما ننقد الجاحظ في تمجيده المطلق للعقل و للمعتزلة و اللغة العربية , وفي هذا يحيد عن الموضوعية ليقع في الانطباعية و الذوقية .

**\* تصنيف الأثر :**

كتابات الجاحظ بين التجريبي العلمي و النثري الأدبي ؟؟

هذه الإشكالية طريفة و حديثة، تدرس مدونة الجاحظ من حيث ثنائية العلمي و الأدبي، أي انتماء و تصنيف هذه الآثار (الرسائل و الحيوان ) . فهل تندرج ضمن الكتب العلمية ؟ أم هي كتب فنية أدبية ؟

- مدونات الجاحظ تسبح في بحر جمع بين العلمي و الأدبي، فهي من وجهة نظر أولى، موسوعات علمية من حيث حديثها عن المعارف و العلوم المتعلقة بالحيوان و النبات و الإنسان، وتتجلى العلمية كذلك في التجارب التي يخوضها الجاحظ . وهي من وجهة نظر ثانية مدونات أدبية فنية بأسلوبها و لغتها و طريقة طرحها .

استطاع الجاحظ اعتمادا على مجموعة من الأساليب أن يطوّع اللّغة العربية - و النثر العربي على وجه الخصوص - لمعالجة المسائل العلميّة و الفلسفيّة فأسهم في إثرائها بالكثير من المفاهيم و المصطلحات في غير تعقيد و لا غموض، و من هذه الأساليب نجد :

استخدام التركيب الشّرطي التّلازمي" متى ذهب التّمييز ذهب التّخيير " / ذا كان ...فإنّ .../ لولا ...ل / لولا ..لما...)، أو باستخدام أسلوب الحصر ( ما/ لا/ لم...إلا)، و غير ذلك من ألوان الأساليب المعبّرة عن التفكير الاستنتاجي و استدعاء السابق اللاحق . "فلو كان الشّر صرفا لهلك الخلق..." أو قوله في تفسير الآية " و علم آدم الأسماء كلها "."و لو أعطاه الأسماء بلا معان لكان كمن وهب شيئا جامدا لا حركة له ". إضافة إلى التركيب الاسمي التّقريري الذي يستخدم في إعلان حقيقة أو إثبات مسلّمة ينطلق منها أو نتيجة يتوصّل إليها " أبين الكلام كلام الله " و قوله : " للأمور حكمان " . وغيرها من الأساليب التي تتكرر و تزخر بها المدونة المدروسة.

**\* القضايا المطروحة :**

- تعليم القارئ جملة من المعارف و تصحيحها .

- الدعوة إلى تأسيس منهج علمي في التعامل مع الظواهر الطبيعية .

- الدعوة إلى إعادة النظر في الموجودات.

- التخلي عن المسلمات و الخرافات .

- نقد الفكر الإسلامي القائم على النقل و إهمال العقل .

- تحديد منزلة الإنسان في الكون .

- إثبات وجود الخالق من خلال المخلوقات .

- إبراز قدراته ( الجاحظ ) العلمية و المعرفية .

- بيان مسؤولية العالم في تصحيح المعارف و تنقية العلوم . لقوله : " وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من قبلنا فينا , على أنا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ."

(...)

**2 بعض الشواهد من رسائل الجاحظ :**

- " ولولا خوف الملالة و السآمة على الناظر في هذا الكتاب، لقلنا في الاحتجاج عليك بما لا يدفعه وفيما قلنا ما أقنع و كفى " يمكن توظيف هذا الشاهد في بيان أهمية الحجاج في نصوص الجاحظ كما يمكن استغلاله في بيان دور الجاحظ المصحح للمعارف المقنع بالحجة الدامغة ...

- " قد قرأت كتابك فيما وصفت من فضيلة الصمت، وشرحت من مناقب السكوت ..." هذا الشاهد يظهر بنية نص الجاحظ الحجاجي فهذا القول هو نقيض الأطروحة التي سيفندها ويأتي ببديلها، كما يمكن أن نفهم من هذا الشاهد موضوعية الجاحظ في طرح المسائل التي يروم إصلاحها فكأنه يصور نفسه بموضوعية و عفة، فما كتبه فقط مجرّد ردود و أجوبة لرسائل و أسئلة من مستفسرين يطلبون الجواب اليقين، فينتصب بذلك الجاحظ منصب المعلم و المصحح ...

- " و أتيت – حفظك الله – على جميع ما ذكرت من ذلك ووصفت و لخّصت، وشرحت و أطنبت فيها وفرطت بالفهم و بحثت بالحزم ..." فيه بيان لمنهج الجاحظ القائم على إعمال العقل ( شرحت ، الفهم ، بحثت ...) كما في هذا الشاهد نتبين أسلوبه في التعامل مع المتلقي حيث هيمن الرفق و الدعاء وهو أسلوب كلامي بامتياز ...

- " وإنّي سأوضح لك ببرهان قاطع " شاهد يوظف في الحجاج بحيث يعتبر البرهان/البرهنة وسيلة من وسائل الحجاج و الإقناع .

- في سياق دفاعه عن المعتزلة يقول " وأمّا إخبارهم عن عيبنا إياهم حين لم ..." فالجاحظ يعتمد ضمير المتكلم الجمع للدفاع عن المعتزلة و بذلك يبدو انتماؤه إلى مذهب الاعتزال واضحا و جليا ..

- " والتقليد مرغوب عنه في حجة العقل منهي عنه في القرآن " رفض للتقليد و دعوة إلى اعتماد العقل و التأمل في المعارف و العلوم وهذا دليل على المنزع العقلي الذي ينتهجه الجاحظ طريقا و الاعتزال الذي يتبناه مذهبا.

- " و أنّا لا نشك أن من نظر و بحث وقابل ووزن أحق بالتبيين و أولى بالحجة " يمكن توظيف هذا القول في بيان مظاهر المنزع العقلي في تمحيص المعارف و بلوغ الحقيقة ...

**ملاحظة :** يمكن توظيف هذه الشواهد في غير المواضع التي أوردتها و ذلك وفق اختيار التلميذ ووفق حاجيات الموضوع.

**3 على سبيل النقاش:**

يمكن مناقشة الجاحظ مناقشة داخلية أي نقاش أفكاره و مواقفه و معارفه مع مراعاة الواقع الذي كتبت فيه هذه الكتب، إلا أنه بإمكاننا أيضا على غرار هذه المناقشة الداخلية مناقشة مواضيع الجاحظ بالعودة إلى الواقع، حيث نجد مواقف الجاحظ اليوم قد فقدت كل قيمة بالنظر إلى التطور العلمي الذي ما عاد يعتمد كل تلك المعطيات بل و نجده قد فنّد كثير المعارف التي توصل إليها الجاحظ .

**بالتوفيق و النجاح و لا تنسونا بصالح دعائكم .**